

❖ فكرة الثبات والتغير في الفكر الغربي

كهد. الأخضر شريط

أستاذ محاضر بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

- جامعة الجزائر -

إن الهدف من هذا البحث هو إبراز فكرة الثبات والتغير في الفكر الغربي فإذا كانت فكرة الثبات والتغير من المفاهيم التي ظل يستفيد بل ويبنى عليها الفكر الغربي طوال أشواط ومراحل التاريخ منذ الميلاد الأول له. أي منذ العهد اليوناني إلى أيامنا هذه، وإذا كان هذا الفكر الغربي قد تعامل مع هذه الثنائية، فإن الأقسام والمراحل التاريخية له تؤكد أن هناك مساراً واحداً جمع هذه الثنائية، ثم أن هذا المسار يمكنه أن يكون قد احتضنها فقط.

وإذا كانت هناك مراحل تاريخية قد أكدت على طفو أحدها "طفو الثبات على التغير أو العكس" على الآخر، فإن هذا بالتأكيد يتبين من خلاله أن الفكر الغربي تأرجح بينهما. أي بين هذه الثنائية.

إن مسألة تأكيد ميلاد الفكر الغربي على مقولتين اشتهر بهما في ميلاده: "إنك لن تنزل النهر مرتين فإن مياهه تجري باستمرار" ⁽¹⁾ و"الكلمات كالزئبق لا تستقر على حال في الواقع فقط لكن في عين الحقيقة، فإن منشأ الضلال هو الكلمات. وعليه فهي بمثابة الزئبق الشيء الذي يتبين من خلاله أن الحقائق ثابتة." ⁽²⁾

هذا الحجر الفلسفي الأول في الفكر الغربي يتأكد من خلاله أن هذا الأخير تعامل مع هذه المسألة. ولكن يا ترى هل تعامل معها في كل مراحلها التاريخية من مرحلة



البداية أي المرحلة اليونانية، فالمرحلة الوسيطة، فمرحلة عصر النهضة وأخيرا مرحلة العصر الحديث والمعاصر؟ إننا للتأكد من هذا سوف نضبط بحثنا في هذه المسألة كفكرة فلسفية، من جهة، ومن جهة أخرى لما لهذه الفكرة من علاقة بمفاهيم أخرى اعتبارا من أن التفكير الإنساني واحد وكيف تعامل معه هذا الفكر الغربي طوال هذه الحقب التاريخية؟

وإذا كان هذا من "البن بذاته" فإن جوهر ما سنقف عليه هو كيف آلت إليه أمور الثقافة الغربية في هذه العهود مع طفو فكرة التغير تارة ومع طفو فكرة الثبات تارة أخرى. أو كيف صارت عليه ثقافة القوم ابتداء من طفوهما معا، أي ابتداء من طفو الفكرتين معا؟ تلك هي الإشكالية التي نود معالجتها في هذا البحث إننا سوف نعتمد المنهج التحليلي النقدي تارة وتارة أخرى سوف نميل إلى المنهج النقدي من حين لآخر. كما أننا سوف نستعين بأهم المصادر وأهم المراجع التي بحثت الفكرة متخذين من الأجرومية المنطقية مرشدا لنا دون أن نكون عبيدا لها.

أولا: في تحديد المفهومين:

إن مفهوم الثبات ومفهوم التغير له معاني عدة من الناحية المفاهيمية إذ هو تابع بخصوص تعريفه للميدان الذي يعالج فيه. ومن الأمثلة على ذلك إننا نجد هذا المفهوم في كل من الرياضيات والمنطق ولقد دخل هذا المفهوم حتى ميادين العلوم الاجتماعية فنجد في المنطق يعرف بأنه الرابط الذي يربط بين قضية وأخرى أو بين قضية ومجموع القضايا. وعموما فالثبات المنطقي هو العلاقة التي تربط بين القضايا من جهة ومن جهة أخرى يقصد بالتغير في المنطق مادة القضية. وأما بالنسبة لميدان الرياضيات فإن الثابت هو العلاقة الرياضية التي تربط أيضا بين متغيرين. والمتغيرات هنا المقصود منها بوجه الخصوص العناصر الرياضية التي يمكن تعويضها بعناصر أخرى. هذا عموما عن المفهومين

في المنطق وفي الرياضيات كما أننا نجد أن المصطلحين تعددت مفاهيمها بتعدد ميادين الاستعمال فيه. ومن هنا مثلاً وجدنا أن علم الاجتماع يتكلم لا سيما في تخصص علم اجتماع اللغة.

كما أننا نجد أن الثابت أو الثوابت والمتغيرات اقتحمت كمفاهيم رياضية بالأصل عدة شعب وعدة ميادين. إننا أصبحنا نتكلم عنها في كل الميادين ابتداء من العلوم الدقيقة، فالعلوم الاجتماعية، فعلوم المادة والطبيعة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الأهمية القصوى التي يوليها الاهتمام لهذه المسألة. وكون أنها من الأهمية بمكان هو أنها اقتحمت جل ميادين العلوم وإلى يومنا هذا. ومن هنا فإن المفاهيم هذه ليست جديدة بقدر ما هي مهمة، ومهمة للغاية في كل ميادين هذه العلوم. من جهة، ومن جهة أخرى إن مفهوم الثوابت والمتغيرات لا بد وأن كان له ما يؤهله لأن يتبوأ هذه المكانة التي أعطيت له في كل الميادين. أقصد ميادين المعرفة والمعرفة العلمية والحقيقة أن هذا يعتبر مؤشراً على العمق التاريخي الذي وُصف به هذا المفهوم إنه البعد العميق في التاريخ. ومن هنا فإذا ما رجعنا إلى الراهن التاريخي نجده يتكلم عن أن البداية بخصوص هذه الفكرة وغيرها تعود إلى الفكر اليوناني. فماذا عنه وعن تطوره إلى ما نحن عليه؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من تذكير للمفهوم في الفلسفة اليونانية. لقد كان السفسطائيون⁽³⁾ هم أول من نبهوا إلى فكرة أن كل شيء في تغير مستمر انطلاقاً من أنه حتى الكلمات عندهم ليست قارة على حال⁽⁴⁾. فالألفاظ زائلة إلى الزوال اعتباراً من المنطلق أن الإنسان مقياس كل شيء ولذلك استعانوا للتغلب على الخصم بعدة أمور منها ما عرف عندهم بالتلاعب بالألفاظ فاللفظ في رأيهم لا يؤكد الحقيقة لأنه زائل وسائر إلى حال غير الحال التي هو عليها في هذه اللحظة ومنه فإن الألفاظ كما قلنا باتت متغيرة وبالتالي فإن الحقيقة هي الأخرى متغيرة والخلاصة أن السفسطائيين قدموا فكرة



التغير لأول مرة في التاريخ اعتبارا من أن الإنسان في تغير مستمر والحقيقة عنده غير ثابتة والفكرة نفسها قد دلت عليها أكثر الفيلسوف اليوناني هيرقليطس Héraclite 540-475 ق م لما كان ينادي بمقولته المشهورة "إنك لن تنزل النهر مرتين فإن مياهه تجري باستمرار" وهو يرمي من قوله هذا أن الحقيقة غير مدركة المنال باعتبارها غير ثابتة وما دامت كذلك فإن مياهه تجري باستمرار والمراد من هذا هو أن الإنسان لا يستطيع أن ينال الحقيقة من هذا العالم الظاهر لسبب واحد ووحيد هو أن هذا الأخير لا يلبث أن يتأكد من صيرورة التغير فالحقيقة في هذا أن جميع الحقائق هي الأخرى زائلة وعليه فالنهر نهر الحقيقة غير قار، وغير مستقر. فالحقائق بجواهرها وهذه الأخيرة لا مناص سائرة نحو التغير والتحول من حال إلى حال.

وبالمقابل فلقد أكد أنكسماندراس⁽⁵⁾ Anaximandre (حوالي 611-547 ق م) على عكس هذا أي أن الحقيقة ثابتة لأن الجوهر هو عين الحقائق وما دام كذلك فإن الحقيقة هي الأخرى ليست متغيرة والمتغير هو العرض والعرض لا محال زائل وأما الحقيقة فباقية والأشياء حسبها تعرف بالجواهر وليس بالأعراض ومنه فإن كل الحقائق تنبئ عن معرفة يقينية للإنسان.

إن فكرة الثبات في الفكر اليوناني يلاحظ عليها أنها لم تتعرض للنقد مثلما تعرضت فكرة التغير وذلك من طرف لا سيما المثلث اليوناني الخطير "سقراط، أفلاطون، أرسطو".

فبخصوص الفيلسوف سقراط Socrate (حوالي 470-399 ق م) كانت بالنسبة له فكرة التغير هي فكرة استغلت من طرف السفسطائيين أحسن استغلال إذ لا يمكن أن يعقل وأن تكون هذه الفكرة غير مزلق استغله السفسطائيون من أجل التلاعب

بالألفاظ لأن أهم القضايا التي كان يتعرض لها لا سيما في الفكر السياسي كانت دائما تستغل لصالح هؤلاء ومن الأمثلة على ذلك حقيقة العدل وحقيقة المساواة وحقيقة الديمقراطية وغيرها من الحقائق التي كانت تمثل للسفسطائيين كلمات يمكنها أن تثبت لبعض الحين ولكنها لا تلبث أبدا. الشيء الذي دفع بالفيلسوف سقراط أن يبدع المنهج الذي مكّنه من أن يتغلب على تلاعبا تهم على حقائق الأشياء. ولقد أتى بالمنهج الذي عرف به ألا وهو منهج توليد الأفكار الذي قال عنه "لقد كانت أمني تولد النساء وأما أنا فأولد الأفكار" ومن خصوصيات هذا المنهج ما يلي:

أولا: اتباع أسلوب المحاكاة مع السفسطائيين.

ثانيا: نقد أفكارهم مع تبیین الخطأ والضلال فيها.

وثالثا توليد الأفكار التي تليق أو تتلاءم وتتوافق مع فكرة الخير والجمال وكل ما هو معياري. ولقد كانت الأفكار كما يقول السفسطائيون محطة نقد من سقراط حتى باتت كل من فكرتي العدل والمساواة لديهم من منشأ الضلال عندهم. لأن سقراط استطاع أن يبين بمنهجه وجه الرذيلة فيها ووجه الفضيلة من جهة، ومن جهة أخرى لقد كشف عن المطبات التي كان هؤلاء يفتعلونها مما عرف لديهم بالتلاعب بالألفاظ.

وأما أفلاطون فلقد انتقد الفكرتين فكرة التغير التي عرف بها هيراقليطس وفكرة الثبات التي عرف بها انكسيماندريس، وفي رأيه فإن القائلين بأن حقائق الأشياء متغيرة ولا تعرف إلا التغير فكرة بها الكثير من الغواية والضلال. حتى أن الكلمات تشبه لديهم الزئبق فهي لا تستقر على حال. فإذا كان للكلمة جوهر ولها أيضا عرض فإن الحقيقة تكمن في ما ينشأ من جدل ما بين الجوهر والعرض. بمعنى أن الجدل الصاعد والجدل النازل هو وحده الذي يحصص حقيقة الأشياء. وبعبارة أوضح - وحسب أفلاطون - فإن



الحقائق لا تتسع إلا إذا نزلت من عالم المثل، من جهة ومن جهة أخرى، تتعرض للجدل الصاعد من عالم الحس. وبهذا وحده تتبين حقيقة الشيء. كما تتأكد أن الكلمة بهذين الوجهين تتعرض للتعرف ولعملية مفادها تذكر الأشياء بل تذكر حقائق الأشياء. إذن فكرة الثبات أو فكرة التغير هي عرضة هنا للنقد الأفلاطوني وهي بهذا عرضة للنقد لا سيما مع استخدامه للمنهج الجدلي، منهج الجدل الصاعد والجدل النازل.

إن فكر التذكر يتولد - حسب أفلاطون - من تسليط هذا المنهج على الأفكار فتتضح حقيقتها. ويتضح معها أن "العلم هو الفضيلة وأن الجهل رذيلة". والخلاصة التي جاء بها أفلاطون في فكرتي الثبات والتغير أن لا ثبات ولا تغير في حقائق الأشياء وإنما جدل دائم ديمومة كلية - من التغير إلى الثبات - والعكس. بفعل عامل الجدل الصاعد والجدل النازل. بفعل تعرض حقائق الأشياء للاختبار من عالم المثل من جهة ومن جهة أخرى بفعل تعرضها لعالم الحس بفعل الجدل النازل.

أما الفيلسوف اليوناني أرسطو⁽⁶⁾ "Aristore" حوالي 384-322 ق م فإنه يركز في فكرتي الثبات والتغير على الموجودات ففي رأيه أن الموجودات قابلة للتغير وللثبات أما ما يقيم بل ما يقيم هذا التغير وهذا الثبات إنما هو المعيار الذي توزن به كل الأشياء ومنه فإن حقائق الأشياء تابعة لموازينها أي أن التغير والثبات فكرتان على علاقة متينة بعالم الحس هذا الأخير الذي هو في اتزان دائم مع المعيار الذي به تعرف الأشياء به تتأكد حقيقته. إنه المنطق أو الأورغانون Organon¹ الذي به تتم حقائق الأشياء والخلاصة أن أرسطو جعل من فكرتي الثبات والتغير فكرتان عالقتان بعالم المنطق فما وزن منها معيار فهو بمعياره وما وزن منها كيفاً فهو بكيفية. وإن الذي يؤكد كل هذه الحقائق إنما هو المنطق تلك الآلة التي تعصم الذهن من الزلل في الحكم على الأشياء.

لقد كان لفكرتي الثبات والتغير أثرهما في الفكر الأوروبي ولا سيما منه في الفكر الذي عرف بفكر عصر النهضة الأوروبي إذ المعروف أن النهضة⁽⁷⁾ Renaissance تعني فيما تعني بعث التراث اليوناني من جديد فالنهضة في أصلها الأجنبي تعني إعادة الميلاد أي ميلاد التراث اليوناني من جديد ومنه فلقد ركز هذا الفكر على إحياء الفكرتين، أي فكرة الثبات والتغير أيضا من جديد.

ونحن بصدد هذا البحث المتواضع لا نتمكن من الإتيان على كل تفاصيل هاتين الفكرتين في هذه العوالم كلها. لذا سوف نتبع أهم بروز، طفولهما "أي لفكرتي الثبات والتغير" دون مراعاة أن تكون الفترة التاريخية قد بحثت في كل الموضوعات التي ذكرنا.

يمكن القول أن فكرة التغير قد برزت أكثر في كل من الفكرة السياسية التي جاء بها مكيافيلي⁽⁸⁾ Machiavel . N 1469-1525 م والفكرة السياسية التي قدم لها الانجليزي توماس هوبز⁽⁹⁾ Hobbes . T 1588-1679 م كما نجد أن الفكرة أخذت بها في المعرفة البيولوجية تشارلز داروين⁽¹⁰⁾ Darwin, C . 1809-1882 وسبنسر هيربرت⁽¹¹⁾ Spencer, H . 1820-1903 في الاجتماع. وكارل ماركس⁽¹²⁾ في الاقتصاد.

وأما فكرة الثبات كما جاءت في الفكر اليوناني يمكن القول أنها كانت قد أمدت بتأثيرها على كل من الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت⁽¹³⁾ Descartes, R 1596 . 1650 م والفيلسوف الألماني هيغل⁽¹⁴⁾ Hegel, G . 1770-1831 م والفيلسوف الألماني كانت⁽¹⁵⁾ Kant, E 1724 . 1804 .



سوف نحلل المتأثرين بفكرة التغير أو الحاملين لفلسفتها لنعود إلى أصحاب فكرة الثبات أو الحاملين أيضا لفلسفتها.

فكرة التغير وأثرها على الفكر الأوربي:

لقد كانت بدايات عصر النهضة الأوربي مدشنة في عالم السياسة وفي عالم المناهج العلمية لسبب وحيد هو تلك القصة التي نسج أبطالها فريقان، فريق أرباب الكنيسة المسيحية (التي طالما تجبرت وتكبرت في الأرض مدعية أنها ممثلة لله في الأرض وبالتالي لا رأي إلا رأيها) من جهة ومن جهة أخرى فريق العلماء أو ما عرف بأصحاب الثورة الكوبرنيكية أي ما قام به كل من غاليليو Galilée 1564-1642 م الإيطالي وكوبرنيك البولوني Copernic 1473-1543 م في قصة دوران الأرض التي عارضتها الكنيسة برأيها القائل بأنها مسطحة ولا تدور. وخلدها غاليليو بمقولته المشهورة "وبالرغم من ذلك فهي تدور"¹⁶ غير عابئ بما جهزوا له من مجانيق، وغير عابئ بما حُضر له من مقصلة. فالقصة إذن بدأت مع ذاك الطلاق بين رجال العلم من جهة. وبين الكنيسة المسيحية من جهة ثانية. لهذا السبب كان الاهتمام - كما قلنا - بفكرة التغير في عالين هما عالم السياسة وعالم العلم والمناهج. فماذا عن عالم السياسة وتأثر فلاسفته بفكرة التغير اليونانية؟

إن أجدر فيلسوف سياسي تأثر بهذه الفكرة "أي فكرة التغير" هو الفيلسوف والسياسي الإيطالي صاحب كتاب "الأمير" نيقولا ميكافلي فيا ترى ماذا جاء في فلسفته السياسية عن الفكرة؟ إن الفيلسوف هذا يتأثر للفكر انطلاقاً من الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه فلورانسا حيث دارت حروب كثيرة وكان يرى بأم عينه حكاية مؤامرة مشروع البابا ليون العاشر في أبريل 1513 الذي كان يريد إيجاد دولة لذويه فراح يكتب

كتابه الأمير والذي فيه يصور إتيقان "فن" الحرب مع خصومه من أجل الفوز بشرف روما ومن أجل الفوز بالإمارة وأي إمارة إنها إمارة فلورانس وعلى هذا راح يؤسس للحكومة⁽¹⁷⁾ والشروط التي يجب أن تتوفر في كل من يحصل على الإمارة. بماذا ؟ بفكرة "الغاية تبرر الوسيلة" اعتبارا من أن لا شيء على ثبات ولا شيء مستقر إذن إن الفوز بالملك وبالسُلطان يمكنه أن يحصل بأي طريق لأن السياسة هي عالم المكر والخديعة فهي تشبه تماما ذاك "الثعلب الماكر" إذ هو لا يعرف للخير إلا ما أنجز ولا يعرف للشر إلا ما انتصر عليه. ومنه فإن فكرتي الخير والشر عنده فكرتان نسبتي التحقق فهما تتحققان اعتبارا من قوة وجبروت الفوز الذي يحققهما الأمير "وهي قوة الأسد"⁽¹⁸⁾. واعتبارا وانطلاقا مما يتوفر عليه هذا الأخير من استعداد لخوض الحروب التي يحقق فيهما النصر وأي نصر إنه نصر بأي ثمن وبأي وسيلة. حتى ولو كان على حساب الفكرة الأخلاقية وحملتها. لأنهم حينئذ هم ضعفاء ولا بد لهم من ترك الحكم لمن هو أجدر.

إن مسألة الفوز بالإمارة هي مسألة تتوقف على جانبيين في المعادلة من جهة القوة كوسيلة لتحقيق الهدف ومن جهة أخرى المكر والخديعة لتحقيق الوسيلة فهي حينئذ غاية. كما أنها لغة الحرب وبالحرب وحدها تتحقق الأغراض السياسية ويصبح الأمير أميرا على مملكته. وإما غيرها من الخصوم فهم ضعفاء لأنهم ركنوا إلى حياة الجبن وحياة الوداعة. ولا مكان للوداعة لا مكان "للخراف في عالم الذئاب". وفي عالم يتميز بالمكر وبالخديعة إنه عالم الثعالب. والأمير "أسد" بطل بما حقق من فوز اعتمادا على هذه الغاية غاية المكر والخديعة.

وأما الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز فلقد نسج على منوال الفكرة نفسها لكن هذه المرة بالتأسيس الفلسفي أكثر من التأسيس السياسي كما فعل صاحب الأمير. إن فكرة التغير تتضح معالمها لما يقيم هذا الفيلسوف صنفين من المجتمع ما يسميه بالمجتمع



الطبيعي وما يسميه بالمجتمع السياسي⁽¹⁹⁾. وأن التغير لا بد له أن يحصل في المجتمع الطبيعي، لأن يصبح المجتمع سياسيا. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ يقول هوبز إن الأفراد في المجتمع الطبيعي متعاقدون ولكنه عقد خداع وعليهم أن يجددوا عقدهم هذا المتمثل في التنازل للأقوى، ولكن بأي وسيلة إنها وسيلة استخدام القوة. فبالقوة وحدها يستطيع القوي أن يخضعهم لجبروته لقوته، لهيمنتته. لكن التنازل هذا هو في الأساس تنازل عن الحقوق. وهو في حقيقة أمره قيام بواجبات نحو السيد. الذي لا سيد من ورائه. والذي هو الذي خول له الحكم. وهو وحده الذي يتمكن من قهر الأغلبية لجعلها في مسيرة المجتمع السياسي ذاك المجتمع الذي يحقق التغير الفعلي - لما فقط - يتنازل عن حقوقه لصالح الواجبات التي هي حقوق السيد.

ونلاحظ فكرة التغير متجسدة هذه المرة عند الرحالة البيولوجي تشارلز داروين إذ أن فكرة تطور الكائنات جاءت من فلسفة التغير التي أعيد إحيائها من جديد في شكل مصطلح جديد يتناسب والمقام، مقام الحياة البيولوجية. فعوض التغير هناك مصطلح التطور. والتطور حسب داروين حصل في الكائنات من أبسط كائن حي إلى أعقد الكائنات الحية. وهذا الأعقد إنما هو الإنسان. والتطور يحصل في الدرجة وليس في النوع أي في درجة النمو. " للإشارة فلقد واجهت فكرة التطور عدة انتقادات حتى من الداروينيين أنفسهم ومن غيرهم". والمهم بالنسبة لنا هي فكرة في التغير.

ولقد تركت هذه الفكرة امتدادات على العلوم تقريبا جميعها. فأصبحت في الاجتماع وفي السياسة وفي الاقتصاد وجدنا أن فكرة التغير كان لها الأثر القوي في الفلسفة الاجتماعية التي جاء بها أوغيست كونت. وكذا في روح القوانين الذي جاء به مونتسكيو. وأيضا في علم الاجتماع التطوري الذي جاء به سبينسر. وحتى أنها أيضا تركت أثرها على جدلية المادية التاريخية، التي جاء بها كارل ماركس.



فبخصوص "الفلسفة الاجتماعية" لأوغيست كونت⁽²⁰⁾. فإن هذا الأخير راح يصور فيه أن المجتمع البشري في تغير مستمر عبر التاريخ من المرحلة الميتافيزيقية فالمرحلة الفلسفية فالمرحلة العلمية. ودون أن ندخل في تفاصيل⁽²¹⁾ الفكرة وما لها وما عليها. فالهم أن التغير كفكرة تجسدت معانيه في هذه الفلسفة.

وأما عالم الاجتماع الفرنسي سبنسر فلقد عمل على تجسيد الفكرة هو الآخر في ما سماه بعلم الاجتماع التطوري - فحسبه - فإن التطور يحصل في المجتمع نتيجة لما يطرأ على مستوى الآلية الاجتماعية التي تحركه. تلك الآلية التي باتت تتحكم في القوانين الاجتماعية التي تسيره⁽²²⁾. وهي القوانين التي يُعتقد في صحتها لأنها قوانين الميكانيزم الناتج عن الحتمية الاجتماعية.

أما "روح القوانين"⁽²³⁾ فلقد صور هو الآخر القانون وكيف يتغير بفعل تغير العادات والأعراف من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر. وهكذا فالعرف الاجتماعي في تغير مستمر إذا لا بد من قانون يناسب العرف أيضا.

ولقد عمل الفيلسوف والاقتصادي الألماني كارل ماركس على تجسيد الفكرة أيضا فكرة التغير حينما صور "المادية التاريخية" على أنها تغير عبر مراحل تلك المادية التي صور من خلالها أن المجتمع البشري هو الآخر مر بمراحل من المرحلة المشاعة، فالمرحلة الإقطاعية، فالبورجوازية، فالاشتراكية، وأخيرا المرحلة الشيوعية. أنى يتحقق الفعل الاقتصادي فيها، ويصبح "لكل حسب عمله ولكل حسب حاجته"⁽²⁴⁾.

وأما الفكر الغربي ما بعد ماركس والماركسية، فلقد تأثر بالفكرة أيما تأثر حتى غدت فكرة التغير منتشرة في جميع التيارات الفكرية المعاصرة ووظفت بحسب الطلب في



فكرة الثبات والتغير في الفكر الغربي

التيار الفكري الذي تتبناه والأمثلة على هذا كثيرة. لا نغالي إذا قلنا أن التغير كفكرة شدت انتباه الوجوديين على اختلاف أصنافهم. حتى وقفنا على ذاك الذي راح يبحث عن معناه في هذا الوجود "كولون ولسون" في "اللامتعي"⁽²⁵⁾. والتغير فكرة مغروسة في التيار البنيوي المعاصر. وكذا في تيار فلسفة القوة وفي غيره من التيارات المعاصرة.

فكرة الثبات وأثرها في الفكر الغربي:

لقد رأينا كيف أن فكرة الثبات أسس لها في الفكر اليوناني انكسماندراس وهامي تعود من جديد مع عصر النهضة الأوربي حيث راح الكثير من المفكرين والفلاسفة يطبعون فلسفاتهم بهذا الطابع، أو لنقل أنهم كانوا جد متأثرين للفكرة وسوف نذكر أيضا نماذج من مختلف التوجهات.

ففي مقدمة القائلين بالثبات الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت. فعلى الرغم من رسمه لمعالم الكوجيتو الذي اشتهر به، إلا أن هذا الكوجيتو الديكارتي لوحظ عليه ما يلي:

- أنه لم ينطلق سوى من الأنا ليعود ويؤكد على فكرة الأنا ففي قوله "أنا أفكر إذن أنا موجود" تأكيد لفكرة الجوهر جوهر حقائق الأشياء التي قال بها فلاسفة الثبات عند اليونان⁽²⁶⁾.

- وأما عن تأكيده لفكرة وجود مبادئ الميتافيزيقا فإنما هو انطلاق من أيضا تأكيد الفكر الرياضي هذه المرة هي الأخرى على الفكرة نفسها.

- أولم تكن التأملات هي بالأساس تأملات من أجل تأكيد الجوهر الذي هو ملكة التمييز والذي هو فكرة العقل الذي قال عنه ديكارت نفسه أنه "القسم العادلة بين البشر"⁽²⁷⁾.



- ولقد كانت "مقالة في الطريقة" إنما هي معالم تجسيد لفكرة الثبات لكن هذه المرة باستخدام العقل. لأن هذا الأخير تحكمه قواعد. أو ليست هذه القواعد ثابتة؟ بلى هي ثابتة لكن ديكارت تميز بالكشف عنها. والأکید أن فكرة الثبات تتكرر عنده من جديد في هذا الطرح وفي كل أطروحاته.

وأما الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط. فلقد جسد الفكرة أكثر ربما من ديكارت فكرة الثبات سواء في "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" أو في "نقد العقل العملي" أو حتى في "نقد العقل الخالص" فإذا ما تفحصنا الأسس سنجد أنه يؤكد على فكرة الأخلاق التي هي من وضع العقل فالأخلاق هي ما يملیه الواجب الخلفي هذا الأخير يأخذ أوامره من الأمر القطعي وبالتالي هذا عملي ليس إلا بتعبير آخر فإن العقل جوهر ثابت والأخلاق لا تلتبس فكرة القيام بالواجب إلا منه أي من الجوهر الثابت.

إن الأخلاق أو العقل كلاهما حسب كانط تستلهمان أوامرهما من الأمر القطعي ذاك الأمر الذي مصدره - حسب نقد العقل العملي - إلى فكرة النومان وأن هذه الفكرة، وإن كانت فكرة ميتافيزيقية إلا أنها تعود بالأساس إلى فكرة الثبات. الثبات على الأقل في الأوامر. فمن غير الممكن و- حسب كانط - أن يصدر الأمر القطعي من مصدر مشروط أو من أمر تتحكم فيه أي حتمية، ناهيك أن يكون أمراً نازلاً عن الأمر المتغير أو في سلسلة المتغيرات فصيغة كـ "إذا كان يجب عليك فأنت تسطع". هذه الصيغة ليست متغيرة كفكرة أولاً وليست متغيرة مع الظروف مهما بلغت هذه الظروف. هذا مثال بسيط عن صيغة لا تتغير ناهيك عن الصيغ الأخرى في فلسفة كانط الأخلاقية، كما جاءت في أسس ميتافيزيقا الأخلاق، كالقواعد التي يضعها العقل للأخلاق.



إن تتبع فكرة الثبات من الممكن أن نجد لها أيضا في "العقل في التاريخ" ذاك المؤلف الذي وضعه هيجل في فلسفة التاريخ غير أن هذه الفلسفة التي لا تتميز بالتغير فهي على العكس تتميز بالثبات - فحسب هيجل - دائما فإن التاريخ هو ذاك الذي بدأت شمسهُ في اليونان، وطلعت على الشعوب الجرمانية ولن تتغير ولن تعرف هذه الفكرة أي تغير. لأن منعرجات التاريخ التي عرفها هذا الأخير ما هي إلا نقط ضعف فيه لكن حقيقته فهو لا يعرف التغير بل يعرف فقط الثبات. لماذا؟ لأنه عقل والعقل جوهر متعالٍ وليس عرض.

والخلاصة:

إن فكرة الثبات وفكرة التغير طبعتا الفكر الغربي من بداية بزوغه عند اليونان إلى أيامنا هذه لكن الملاحظ أن ما ميز الفكرتان ما يلي:

- اعتقد جل فلاسفة ومفكري الغرب أن التغير هو تغير في الجواهر فراحوا يؤسسون لهذا في جل الميادين المعرفية من المعارف الفلسفية والمعارف الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

- قد يكون السبب في تبني أكثر مفكري الغرب فكرة التغير يعود لعاملين مهمين هما:

أولا: حب التطلع إلى ما يأتي به التغير وهو عامل نفسي.

ثانيا: الظرف التاريخي الذي أتى بالثورة الكوبرنيكية في العلم وقصة الطلاق بين هذا الأخير من جهة، والكنيسة المسيحية من جهة أخرى. "أردنا أن نقول بأن التغير الباعث إليه هنا هو العامل التاريخي وكذا العامل السياسي".



- إن فكرة الثبات في الفكر الغربي مثلت خاصة من المدرستين الفرنسية والألمانية. على غرار فكرة التغير التي بنتها أكثر المدرسة الإنجليزية. والسبب يعود إلى كون الأولى اتسمت بالتفكير الرياضي وأما الثانية فلقد اتسمت بالتفكير التجريبي.

- ساهمت الفكرتان في تطوير المجتمع الغربي إذ أن أصحاب فكرة الثبات كانوا محط نقد من أصحاب فكرة التغير. والعكس صحيح أي أن أصحاب التغير كانوا هم أيضا محط نقد من أصحاب فكرة الثبات. الشيء الذي جعل الصيرورة "الاجتماعية، والثقافية، والحضارية" تقف على الذي تقف عليه من تطور حضاري.

- لقد كانت الفكرتان تنموان جنبا إلى جنب في المسيرة الاجتماعية للمجتمع الغربي، ولكن دون أن تحدث ضررا بمبادئه، ولا حتى بقيمه. فالقديس بقي قديسا والعلماني بقي علمانيا إلى نضاجه. لكن التطور بعث بفضل الحفاظ على هذين العاملين: انطلاقا من المقولة السياسية التي دشن بها الفكر الغربي مسيرة نهضته "دع ما لقيصر لقيصر وما لله، لله". ثم "دعه يعمل دعه يمر" في المجال الاقتصادي. أردت أن أقول أن تطور المجتمع الغربي وإن كان يعود إلى الفكرتين ومدى مساهمتهما في تطويره فإنه يعود في الأساس إلى مناخ الحرية الذي عايشه لا سيما بعد النهضة.

الهوامش

¹ - عرفت هذه المقولة عند الفيلسوف اليوناني هيراقليطس أنظر : Platon ,Cratyle t. Louis

merdier édition Budé 1931 P49

² - أنظر : G.Seaille et P.Janet, Histoire de la

philosophie, Delagrave 1942. P232

³ - يعتبر السوفسطائيون بمثابة المشعذ الذي تكون عليه الفكر اليوناني وكان أول رائد لهم هو أنيستانس حوالي

444 ق م - 371 ق م



فكرة الثبات والتغير في الفكر الغربي

السفسطائية مدرسة فلسفية تكونت في اليونان القديم معارضة في أفكارها للأبيقورية في تصوراتها للحياة وللواجب . والفلسفة السفسطائية امتداد للفلسفة التي كان على رأسها أنتيستان والذي كان في نزاع فكري مع سقراط. أنظر بهذا الخصوص:

Microsoft ® Encarta ® 2006. © 1993-2005 Microsoft Corporation.
Tous droits réservés

4- فيلسوف ورياضي وفلكي يوناني حوالي 611-547 ق م
5- فيلسوف يوناني (384-322) من أهم مؤلفاته في المنطق الأرغانون ، التحليلات الأولى ، التحليلات الثانية والطوبىقا ...

6-Renaissance, période de l'histoire européenne où s'est manifesté un intérêt renouvelé pour les arts et la culture de l'Antiquité.

7- Microsoft ® Encarta ® 2006. © 1993-2005 Microsoft Corporation.
Tous droits réservés.

- 8- نيقولا ميكافلي: رجل دولة، مفكر، ومؤرخ، وسياسي إيطالي. 1525-1469
- 9- هو بز توماس، فيلسوف إنجليزي، صاحب المقولة الشهيرة "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان".
- 10- داروين تشارلز، عالم طبيعة إنجليزي 1882-1809م واضع أسس فكرة التطور التي تبنى على الانتخاب الطبيعي.
- 11- سينسر هيربرت: فيلسوف بريطاني عرف علم الاجتماع أكثر بفكرة التقدم أو التغير الاجتماعي والتي تأثر هو الآخر فيها بأعمال لامارك، ج، ب: الفرنسي
- 12- كارل ماركس: فيلسوف سياسي واقتصادي وثوري ألماني 1883-1818م
- 13- ديكارت رينيه فيلسوف ورياضي ومنطقي فرنسي 1650-1596 م
- 14- هيغل، ج، فيلسوف مثالي ألماني 1831-1770 م
- 15- كانت. إ. فيلسوف ألماني يعود الفضل إليه في وضع الفلسفة النقدية التي كانت ثورة كوبرنيكية في الفلسفة
- 16- مقولة "وبالرغم من ذلك فهي تدور" عبارة اشتهر بها غاليلو
- 17- أنظر Machiavel .Le Prince, chapitre 5. Paris, Fernand Hazan, 1947
- 18- Ibid, chap3, P33



- 19- لأكثر تفاصيل راجع: Hobbes, Thomas, *Léviathan*, chapitre XIV, trad. par 21-François Tricaud, Paris, Sirey, 1971.
- 21- لتفاصيل أكثر أنظر أوغيست كونت الفلسفة الاجتماعية.
- 22- لتفاصيل أكثر أنظر سينر هيربرت أسس علم الاجتماع
- 23- عنوان كتاب لمونيسكيو
- 24- لتفاصيل أنظر كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي،
- 25- عنوان كتاب لكولين ويلسون وهو عبارة عن دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين.
- 26- عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1989
- 27- أنظر: مهدي فضل الله، فلسفة ديكرت ومنهجه (نظرة تحليلية ونقدية) ، بيروت، ط دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983. ص 92

وَاِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ
الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنْذِرِينَ

الشعراء 192-193